بسم الله الرحمن الرحيم
الجزء الثامن والعشرون
سور
المجادلة - الحشر - الممتحنة
الصف - الجمعة - المنافقون
التغابن - الطلاق - التحريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤)﴾

جاءت خولة بنت ثعلبة الخزرجية تشتكى زوجها إلى رسول الله (ﷺ)، وتجادله فيما فعله بها زوجها فقالت: تزوجنى وأنا شابة مرغوب فىّ، فلما خلا سنى (كبرت) ونثرت بطنى (كثر ولدى) جعلنى عليه كأمه، فأجابها «ما أُمرت فى شأنك بشىء حتى الآن» وجادلت رسول الله (ﷺ) مرارًا، ثم قالت: اللهم إنى أشكو إليك شدة وحدتى، وما يشق علىّ من فراقه. وفى رواية أنها قالت: أشكو إلى الله فاقتى وشدة حالى، وإن لى صبية صغارًا إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلى جاعوا، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول: اللهم إنى أشكو إليك، فنزلت الآية ـ رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه، والظهار كان عادة جاهلية، إذا غضب أحدهم على زوجته قال لها ظهرك علىّ كظهر أمى، فتحرم عليه (فى العلاقة الزوجية

بينهما) ولكنه لا يطلقها، فنهى الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن ذلك ونفى ما يدعون ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِى وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ فأبطل رب العزة الظهار، وبين أنه قول منكر وزور، وأن الله عفو غفور لما سبق قبل حكمه ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾ فمن ظاهر زوجته ثم رغب فى العودة إليها فعليه أولاً كفارة عتق رقبة قبل أن ﴿ يَتَمَاسَّا ﴾ كناية عن عودة علاقاتهما الطبيعية كزوج وزوجة، وفيها الجماع ومقدماته ﴿ ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ الانتهاء عن ممارسة الظهار، وتحرير رقبة لمن وقع فيه قبل تحريم الله له، هو حكم الله الذى عليكم اتباعه، والله خبير بما تعملون ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ﴾ فمن لم يستطع عتق رقبة فليصم ستين يومًا متتابعة ﴿ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ﴾ فمن لم يستطع الصيام فليطعم ستين مسكينًا ﴿ ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ قال الماتريدى: [هو صلة (أى أن ذلك تتمة) قوله ـ تعالى ـ ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا ﴾، ومنهم من قال ﴿ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾، ومنهم من قال ﴿ ذَلِكَ ﴾ القول المنكر الزور الذى قلتم وأعلمكم أنه منكر وزور، لتؤمنوا بالله ورسوله. . . وهكذا العبادات التى أُمروا بها: أُمروا لإحدى ثلاث خلال: حق الشكر بما أنعم عليهم ـ أو لتسليم الأمر له والخضوع ـ أو لحق الاستغفار والتكفير بما سبق من التفريط والتقصير، والله أعلم] هذه هى حدود الله التى لا يجوز تعديها، وللكافرين بها عذاب شديد.

***

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٧) ﴾

من يشاقق ويعادى الله ورسوله، فنهايته المحتومة ذل وصغار، كما حاق بمن ارتكب ذلك الجرم من الأقوام السابقة. ولقد أنزل الله آيات بينات، من يكفر بها فله عذاب أليم، يوم يبعثهم الله جميعًا، ويحاسبهم على أعمالهم التى أحصاها عليهم، ونسوا يومها متعهم

ولذاتهم الدنيوية التى كفروا بسببها . ألم تعلم يا محمد، والخطاب موجه للمؤمنين وكل من يبلغه القرآن، أن الله يعلم كل ما فى السماوات والأرض ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فما يتناجى ثلاثة أو أكثر أو أقل إلا وهو معهم، يسمع ما يسرون، ثم ينبئهم يوم القيامة بكل أقوالهم وأعمالهم ليحاسبهم عليها ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

***

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

ألم تر يا محمد، ومن معك من المؤمنين، ومن يبلغه الكتاب إلى يوم الدين، أولئك المنافقين الذين يتناجون بين بعضهم البعض بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، ويلوون ألسنتهم عندما يحيونك، كأن يقولوا: السام عليك، أى الموت عليك بدلاً من أن يقولوا السلام عليك، ويقولوا فى أنفسهم: لو كان رسولاً بحق لأنزل الله بنا العقاب الفورى على ما نقول، فأجابتهم الآية ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ ثم تنهى الآية المؤمنين عن مجاراة أولئك المنافقين، سواء كانوا مخدوعين فى ذلك الإثم، أو مجاملين لأولئك الملاعين، وتأمرهم بالمناجاة فى البر والتقوى، وأن عليهم أن يتقوا الله الذى إليه يحشرون ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ ﴾ إنما نجوى الإثم والعدوان ومعصية الرسول هى من عمل شياطين الإنس والجن، الذين يوحى بعضهم إلى البعض القول ﴿ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ليدخل الحزن على الذين آمنوا ﴿ وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ واعلموا أيها المؤمنون أنه ليس لهم أن يضروكم بشىء إلا بقدر ما كتبه الله عليكم، سواء ليبتليكم، أو يرفع درجاتكم أو يحط عنكم من ذنوبكم ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ وجاء فى الحديث: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما؛ فإن ذلك يحزنه» رواه البخارى .

***

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(١٣) ﴾

من آداب الإسلام أن يوسع كلٌّ منا للآخر فى شتى أنواع المجالس، مجلس علم وذكر، أو غير ذلك، وفى شتى المناسبات والأحوال، فقد جاء فى الحديث «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» متفق عليه ﴿ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا ﴾ وفى هذه المجالس إذا قال لكم أصحاب المجالس، بدءاً من رسول الله (ﷺ) إلى أصحاب مجالس العلم وولاة الأمور، إلى مجالس العائلة وما إلى ذلك انشزوا، أى قوموا للتوسعة، فقوموا للآخرين ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَاتَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ والإسلام ينزل الناس منازلهم وفق الإيمان بالله والعلم الذى يتبعه العمل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ إذا أردتم الإفضاء ببعض ما فى قلوبكم لرسول الله (ﷺ) فقدموا لمناجاتكم صدقة ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ قال الطبرى: [قال ابن زيد: لئلا يناجى أهل الباطل رسول الله (ﷺ) فيشق ذلك على أهل الحق، وقال ﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [النساء: ١١٤]، وكان المنافقون ربما ناجوا فيما لا حاجة لهم فيه]، وقال الماتريدى: [يشبه أن يكون ما ذكر من مناجاة الرسول (ﷺ) على وجوه، والناس فى مناجاته طبقات: أحدهم يناجيه مسترشداً فى أمر الدين وما ينزل به من نوازل، والآخر يناجيه افتخاراً به على غيره من الناس ومباهاة منه، وهو صنيع المنافقين، والفريق الثالث يناجونه ليُسمعوا الناس الكذب، ويُسمعوهم غير الذى سمعوا (كذبًا على رسول الله (ﷺ))] ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فهذه رخصة للفقراء غير الواجدين ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ﴾ أجزعتم وشق عليكم أن تتصدقوا، وهذا للواجدين القادرين ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أجمع المفسرون أن هذه الآية نسخت الأمر بتقديم الصدقة

قبل المناجاة، فإذا لم تقدموا الصدقات، وتاب الله عليكم ـ فقبل ألا تفعلوا الأولى ـ فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة المفروضة، وأطيعوا الله ورسوله ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وقال كثير من المفسرين أنه لم يقدم صدقة قبل مناجاة الرسول (ﷺ) إلا على (رضي الله عنه)، ثم نُسخ الحكم(١).

***

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٦) لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩)﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد والذين آمنوا معك، والذين يبلغهم القرآن بعدك، وإلى يوم الدين، حال المنافقين الذين يوالون ويترددون إلى قوم من اليهود غضب الله عليهم وينقلون إليهم أخبار المسلمين، هؤلاء المنافقون لا هم باليهود ولا هم بالمسلمين، ولكنهم يدعون الإسلام وهم كاذبون ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فجزاؤهم كما يقول الله تعالى ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ـ وفى آية أخرى أنهم ﴿فِى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] ـ فتوعدهم الله بالعذاب المهين، ويوم الحساب لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم، وأولئك هم ﴿أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ويوم البعث والحساب يحلفون كذبًا على الله، كما يحلفون كذبًا لكم فى الدنيا، وزين لهم تكبرهم وجحودهم أنهم ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ فتارة يظنون أنهم يحسنون صنعًا، وتارة يظنون أنهم أفضل من بقية الناس ويستحقون أفضل ما فى الدنيا، وتارة يغترون بأموالهم وأولادهم ونفوذهم ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ وما أشبه الليلة بالبارحة ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ حقّا وصدقًا ويقينًا.

***

(١) قول أكثر المفسرين إن الآية الأخيرة نسخت حكم الآية السابقة، قد يثير مسألة بقاء تلاوة الآية المنسوخة فى أمر ليس بخطير الأهمية بقدر رجم الزانى المحصن الذى قالوا إنه نسخ تلاوة وبقى حكمًا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ إن الذين يعادون ويشاقون قرآن الله وسنة رسوله ﴿أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ دنيا وآخرة، فلا يغرك أيها المؤمن ظاهر أمرهم، وتيقن أن لربك جنودًا لا يعلمهم إلا هو ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ والغلبة في الدنيا والآخرة بميزان الرحمن وليس بميزان الشيطان ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فهذا هو المقياس والميزان، وهنا هو المحك والاختبار، من يتودد لمن يُعادون قرآن الله وسنة رسوله فهو ليس بمؤمن ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ فما بالك بمن يتودد لمن يعادى الله ورسوله، وهو ليس بأبيه ولا ابنه ولا أخيه ولا عشيرته، بل هو عاداه قديمًا وحاضرًا؟ ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فاعتبروا يا أولى الأبصار.

***

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) ﴾

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ارجع لشرح أول سورة الحديد ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ الله هو الذى أخرج يهود بنى النضير من ديارهم فى الحشر الأول أو الإخراج الأول من المدينة ﴿ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ ولقوة يهود بنى النضير ومنعة حصونهم وكثرة سلاحهم، ظن المسلمون أنهم لن يخرجوا منها أبدًا، ولكن النصر دائمًا من عند الله، فأتاهم الله بالهزيمة من جهة لم تخطر لهم على بال؛ إذ ملأ قلوبهم بالرعب ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ خربوا بيوتهم بأيديهم بأن خلعوا من أخشابها ومن حجارتها ما يبنون به متاريس واستحكامات لمنع المسلمين، وليأخذوا منها ما يستفيدون به إذا رحلوا، وبأيدى المسلمين الذين عادوهم وجعلوهم يحاصرونهم، والألفاظ تحتمل أيضًا أنهم بعملهم حين عادوا

المسلمين بانتهاك ميثاقهم، أى بأيديهم، جلبوا على أنفسهم عداوة المسلمين، فخربوا بيوتهم بأيديهم وبأيدى من عادوهم ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ فاتعظوا يا أصحاب الأبصار، فلولا أن الله قدر عليهم الجلاء عن حصونهم فى المدينة لعذبهم فى الدنيا وأعد لهم فى الآخرة عذاب جهنم، ولكنه أمهلهم ليتوبوا وينوبوا، ذلك بعد أن عادوا الله وخانوا رسوله، ومن يعادى الله فلينتظر أشد العقاب.

***

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٧)﴾

اللينة فى المعجم الوسيط هى كل نوع من أنواع النخل سوى العجوة. وقد نزلت الآية بعد أن اختلف المسلمون فى قطع نخل بنى النضير، وكانوا قد قطعوا نخلة، وأحرقوا نخلة كما جاء فى سيرة ابن إسحاق، ونقل بعض المفسرين عن قتادة والضحاك أنهم قطعوا وأحرقوا ست نخلات، فأنزل الله أن ذلك ﴿فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فلا جناح عليكم ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ الذين انتهكوا ميثاقهم مع الرسول (ﷺ) ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ ما رده الله على رسوله من أموالهم ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ وجف تعنى أسرع واضطرب، والمقصود ما ركبتم خيلاً ولا إبلاً، ولا تجشمتم سفراً ولا قتالاً ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ من القوم الكافرين ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يعز من يشاء ويذل من يشاء ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ فالفىء يقسم على المذكورين، وارجع لشرح الآية ٤١ من سورة الأنفال وتعليق محمد الغزالى عليها ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ ترسى هذه الآية قاعدة هامة فى الإسلام، وتنهى أن ينحصر تداول المال بين الأغنياء، ما آتاكم رسول الله من مال أو غيره فخذوه وأطيعوه، وما نهاكم عن أخذه وفعله فانتهوا، وجاء فى الحديث «كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى»، قيل: ومن يأبى يارسول الله؟ قال: «من أطاعنى دخل الجنة، ومن عصانى فقد أبى» رواه البخارى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

***

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٠)﴾

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ قال المراغى: [أراد بهؤلاء الأربعة السالفين ﴿لِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ فقراء المهاجرين] بينما قال مخلوف: [.. كانوا يعلمون أن الخمس يُصرف لمن تضمنه قوله تعالى ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١] ولم يعلموا مصرف الأربعة الأخماس الباقية، فكأنهم قالوا: فلمن تكون؟ فقيل: تكون للفقراء المهاجرين والأنصار ومن جاء بعدهم، فهى للمسلمين عامة، وهو (ﷺ) يتصرف فيها تخصيصًا وتعميمًا كما يشاء] وارجع لشرح الآية ٤١ من سورة الأنفال، وتعليق محمد الغزالى عليها ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ المقصود الأنصار الذين سكنوا المدينة قبل المهاجرين، وآمنوا قبل هجرتهم ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ يؤثرون حاجات المهاجرين على أنفسهم ولو كان بهم حاجة، أخرج البخارى ومسلم والترمذى والنسائى عن أبى هريرة قال: أتى رجل رسول الله (ﷺ) فقال: أصابنى الجَهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئًا، فقال عليه الصلاة والسلام: «ألا رجل يُضَيِّفُ هذا الرجل الليلة رحمه الله؟» فقال أبو طلحة: أنا يارسول الله، فذهب إلى أهله؛ فقال لامرأته: أكرمى ضيف رسول الله (ﷺ)، قالت: والله ما عندى إلا قوت الصبية، قال: إذا أراد الصبية العشاء فنوّميهم، وتعالَى فأطفئى السراج ونطوى بطوننا الليلة لضيف رسول الله ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله (ﷺ)؛ فقال عليه الصلاة والسلام: «لقد عجب الله الليلة من فلان وفلانة وأنزل فيهما ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾» والتابعون بإحسان للمهاجرين والأنصار يدعون قائلين ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

***

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) ﴾

ألم تعجب يا محمد، والذين آمنوا معك، من المنافقين ـ عبد الله ابن أُبى ومن تبعه ـ الذين يقولون لإخوانهم المنافقين من أهل الكتاب الذين كفروا بك ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ فلم يقاتلوا ولم يخرجوا معهم، هكذا دائمًا شأن المنافقين يقولون ما لا يفعلون ﴿ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ لأنتم ـ أيها المسلمون ـ أشد رهبة ومخافة فى صدور بنى النضير والمنافقين من الله؛ لأنهم قوم لا يفقهون، فاليهود الذين كفروا ترتعد فرائصهم من المسلمين الذين يعتبرون الشهادة فى سبيل الله أسمى أمانيهم، فيحرصون على الشهادة حرص أولئك اليهود على الحياة.

***

﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧) ﴾

﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ ﴾ رب سائل يقول ولكنهم يقاتلون المسلمين الآن بجرأة، والإجابة من عدة وجوه، أولها أن قتالهم دائمًا من داخل دبابات ومدرعات وطائرات، ولا يلتحمون إلا مع العزل، أو إذا كان لهم تفوق عددى وتقنى كاسح، وشاهد على ذلك حربهم على آلاف قليلة من جنود حزب الله، أو جنود غزة، والوجه الثانى هل أمة الإسلام اليوم، برغم عددها الهائل، وثرواتها الأكثر هولاً تقارن بأمة الإسلام وقت التنزيل؟ ﴿ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ وما أصدق الآية قديمًا وحديثًا وإلى يوم الدين، ولا يخدش فى صدقها أن المسلمين أكثر اختلافًا وانشقاقًا، وبأسهم بينهم أشد، فسنن الله تجرى على بنى إسماعيل كما تجرى على بنى إسرائيل ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾

تظنهم متحدين متفاهمين إلاّ أن قلوبهم مختلفة ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ﴾ مثلهم فى ذلك مثل يهود بنى قينقاع فى نقضهم لميثاقهم مع الرسول (ﷺ)، فحاصرهم المسلمون حتى أجلوهم عن المدينة فذاقوا وبال، أى عاقبة عملهم، ولهم فى الآخرة عذاب أليم ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىءٌ مِّنكَ إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ وقد شبه الله حال المنافقين من المشركين ومن بنى النضير بالشيطان الذى يغرى الإنسان حتى يكفر بنعمة الله، فلما كفر تبرأ منه وقال له إنى أخاف الله رب العالمين ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِى النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾.

***

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لا يَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠)﴾

يأيها المؤمنون، اعملوا على تقوى الله، والتزموا طاعته فى أوامره وفى نواهيه ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ فالغد طويل، خلود لا موت فيه، وثوابه عظيم، وعقابه عظيم، ولا تنسوا الله وحساب الآخرة لتتمتعوا بغرور الدنيا الفانية، فينساكم الله كما أنسيتم أنفسكم الله، واعلموا أنه ﴿لا يَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

***

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ اللَّهُ الَّذِى لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِى لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤)﴾

عجبًا لأمر الكفار والمشركين والمنافقين، لا تهزهم آيات الله التى تتلى عليهم آناء الليل وأطراف النهار، ولو أنزل الله هذا القرآن على جبل من حجارة وصخور وتراب لرأيته خاشعًا متشققًا من خشية الله، فلا تكن قلوبكم أقسى من الجبل، هذه الأمثال القرآنية نضربها للناس لعلهم يتفكرون فيتعظون. ثم تختتم السورة بذكر الأسماء الحسنى لله عالم الغيب والشهادة، فهو خالق عالم الغيب وخالق عالم الشهادة، أفلا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير؟ وهو

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ارجع لشرحها فى سورة الفاتحة، وهو ﴿الْمَلِكُ﴾ فهو خالق كل شىء، وهو القائم على أمر كل شىء، فهو مالك الملك يؤتى الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء ﴿الْقُدُّوسُ﴾ قال أبو حامد الغزالى: [هو المنزه عن كل وصف من أوصاف الكمال الذى يظنه أكثر الخلق كمالاً فى حقه] ﴿السَّلَامُ﴾ قال أبو حامد: [هو الذى تسلم ذاته عن العيب وصفاته عن النقص وأفعاله عن الشر]، وهو واهب السلام ومانعه ﴿الْمُؤْمِنُ﴾ قال أبو حامد: [هو الذى يُعزى إليه الأمن والأمان بإفادته أسبابه، وسده طرق المخاوف، ولا يتصور أمن وأمان إلا فى محل الخوف، ولا خوف إلا عند إمكان العدم والنقص والهلاك، والمؤمن المطلق هو الذى لا يتُصور أمن وأمان إلا ويكون مستفاداً من جهته، وهو الله سبحانه وتعالى] ﴿الْمُهَيْمِنُ﴾ قال الزمخشرى: [الرقيب على كل شىء الحافظ له] ﴿الْعَزِيزُ﴾ واهب العزة ومانعها ﴿الْجَبَّارُ﴾ قال أبو حامد: [هو الذى ينفذ مشيئته على سبيل الإجبار فى كل واحد، ولا تنفذ فيه مشيئة أحد، الذى لا يخرج أحد من قبضته، وتقصر الأيدى دون حضرته] ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ هو خالق كل شىء، ومخترع موجد، ومصور كل شىء ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ له الأمثال العلا أو الصفات العلا، يسبح له ما فى السماوات والأرض طوعًا أو كرهًا ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ واهب العزة والحكمة ومانعهما.

***

بسم الله الرحمن الرحيم

تسمى هذه السورة الممتحنة؛ لأن الله أمر فيها بامتحان إيمان المهاجرات من مكة إلى المدينة ليظهر صدق إيمانهن، ولقد نزل الشطر الأول من السورة فى السنة الثامنة من الهجرة وكان الرسول يتأهب لفتح مكة. ورغم أن الصحابى حاطب بن أبى بلتعة من المهاجرين وشهد معركة بدر، إلاّ أنه زل فى لحظة ضعف؛ حيث كان له بمكة قرابة قريبة فخاف عليهم، وأراد أن يكسب ودّ قريش ليضمن سلامة أقاربه!! فكتب كتابًا وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة يخبرهم بما عزم عليه رسول الله (ﷺ) من غزوه مكة، فأطلع الله ـ تعالى ـ رسوله، فأرسل على بن أبى طالب والمقداد والزبير بن العوام وأبا مرثد الغنوى فانطلقوا حتى لحقوا بالمرأة وانتزعوا منها الخطاب، وعادوا به إلى رسول الله، وأراد عمر بن الخطاب أن يضرب عنق حاطب، ولكن رسول الله (ﷺ) قال: «أليس من أهل بدر؟ لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم».

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) ﴾

***

تنهى الآيات المؤمنين عن اتخاذ أعدائهم وأعداء الله أولياء، والتودد إليهم، سواء كان ذلك من باب المنفعة، أو من باب ﴿نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥٢]! وما أحوجنا اليوم لتدبر تلك الآيات والعمل بها، وأعداؤنا هم من يريدوننا أن نتخلى عن ديننا، وهم بالطبع لا يقولون ذلك بصراحة وبوضوح، ولكن يهمزون ويلمزون، ويناورون ويموهون[1]، قال محمد الغزالي: [هُزم المسلمون أول تاريخهم في مكة وطردوا من ديارهم شر طردة، فرفضوا الاستسلام للبغي واشتبكوا مع عدوهم في حرب مرة، وصابروا حتى تحقق لهم النصر.. ومن الناس من يستوعر طريق الكفاح وينتهز الفرصة لقبول الأمر الواقع ولا يرى حرجًا في الاستخذاء أمام عدوه حرصًا على سلامته، ولهؤلاء يقول الله تعالى ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾ إن من السقوط أن تلين لمن يريد قهرك ويحط قدرك أو يحقر دينك! ويحاول فتنتك! ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ والوفاء للعقائد والمبادئ يفرض الولاء لمن يواليها والبراءة ممن يعاديها واعتراض من يعترضها] ﴿لَن

---

(١) فتارة يقولون لنا لا دين في السياسة، ويغضون النظر عن إسرائيل الدولة اليهودية، ويتغافلون عن أن الولايات المتحدة لعب ويلعب الدين دورًا رئيسيًا في سياستها خاصة في الشرق الأوسط ـ بل وفي نشأتها منذ هجرة «البيوريتانز» أو الحجاج من إنجلترا إلى أمريكا من البروتستانت ليعبدوا الله كما يريدون، ـ وبريطانيا وأوروبا كذلك ـ ربما صار الآن دور أقل مما مضى ولكن ليس فيما يخص الشرق الأوسط، فانحيازهم الراسخ لإسرائيل قام على أساس ديني ـ ويحملون الإسلام خطايا باباوات الكاثوليكية وما أحدثوه في دين المسيح (ﷺ)، مما جعل الكنيسة الكاثوليكية تحتل ـ عن جدارة ـ المرتبة الأولى في تاريخ البشرية في قمع الفكر والعلم، وسلب الناس حقوقهم وأراضيهم وأموالهم، وإسالة دمائهم: في الحروب الصليبية في الشرق الأوسط وفي أوروبا وفي أمريكا، وفي محاكم التفتيش، وفي مطاردة وقتل السحرة والساحرات، وتارة أخرى يقولون لا دين في التمويل ولا الاقتصاد، وتارة ثالثة لا دين في الثقافة ـ رغم أن كل مفكري ومؤرخي أوروبا الغربية والولايات المتحدة يقولون إن ثقافتهم وحضارتهم قائمة على أسس يهودية / مسيحية. ومؤخرًا، ذهب أخ مصري مسيحي لمقابلة شيخ الأزهر الدكتور الطيب وطلب منه إلغاء تدريس الإسلام في المدارس! ولا ندري هل يتكلم باسمه، أم باسم المسيحيين في مصر؟ أم باسم منظمة حقوق الإنسان التي يتبعها؟ وأعداؤنا من يصرون على تفتيت وتقسيم الأمة الإسلامية، ويقولون إنها سراب، وإنها لم تقم سابقًا فكيف تقوم حاليًا؟! وإن العصر ليس بعصرها، ويتناسون أن الاتحاد الأوروبي جمع معظم أوروبا في أمة واحدة، ويتناسون أنه لم تتحارب دول في العالم مثلما حاربت أوروبا بعضها البعض: ألمانيا وفرنسا، فرنسا وإنجلترا، ألمانيا وإنجلترا... وتجد حروبًا استمرت ثلاثين عامًا، وأخرى مائة عام، وهكذا.. ولكنها تنبهت أن بقاءها قوية في اتحادها ـ رغم حروبها الدموية القديمة ـ وتتحالف أوروبا مع الولايات المتحدة... ولكن يحاول أعداؤنا بشتى الطرق منع وحدتنا العربية والإسلامية، وقد جاء في التنزيل ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣] والمعنى واضح لكل ذي عينين، لا ولن يجمع العرب إلا التفافهم حول دينهم، فإذا انفضوا عنه اختلفوا، وضعفوا، وطمع فيهم كل طامع، وجاء في الحديث «المسلمون كالجسد الواحد» رواه مسلم «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم» رواه الحاكم «المسلم أخو المسلم لا يخذله ولا يسلمه» رواه البخاري ومسلم، و «يد الله مع الجماعة، ومن شذ شذ في النار» رواه الترمذي.

تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ لن ينفعكم الأقرباء ولا الأبناء ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فكيف ينفعكم غيرهم؟ ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

***

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦)﴾

تأسوا أيها المسلمون بإبراهيم (ﷺ) والذين معه، الذين تبرأوا من قومهم بسبب شركهم، وكفروا بهم بمعنى جحدوا ما هم عليه وما يعبدونه، وقالوا لهم: ظهرت بيننا وبينكم العداوة والكراهية في عبادتكم، حتى إذا آمنتم انقلبت العداوة إلى حب ومودة! ويستثنى من ذلك استغفار إبراهيم (ﷺ) لأبيه طمعًا في إيمانه، فلما تبين له إصراره على الكفر تبرأ منه، ثم تعلم الآية المؤمنين كيف يدعون ربهم في مثل هذا الموقف ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ربنا لا تسلط علينا الذين كفروا فتنة لهم ﴿وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ثم تكرر الآية وتؤكد حسن التأسي بإبراهيم (ﷺ) ومن معه في التبرؤ من الشرك، ذلك لمن يريد وجه الله والحياة الأخرى ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ورغم أن إبراهيم (ﷺ) قال عنه ربه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥] إلا أنه عندما ظهر له أن أباه عدو لله ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

***

﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧) لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩)﴾

ثم يفتح الله باب الرحمة والود والأمل للمؤمنين المشفقين على أعدائهم في الدين، فيقول ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ عسى

أن يدخلوا فى الإسلام ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يغفرلهم ما سبق ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ فالذين لم يشهروا سلاحًا فى وجوهنا لمجرد أننا مسلمون، ولم يسعوا ولم يعملوا على طردنا من بلادنا، فعلينا أن نبرهم ونعدل معهم؛ لأن الله يحب العادلين ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ينهى الله المؤمنين أن يوالوا ويودوا من قاتلهم فى الدين، وأخرجهم من ديارهم، ومن ساعد على ارتكاب تلك الجرائم، ومن يفعل ذلك فأولئك هم ﴿ الظَّالِمُونَ ﴾.

***

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١) ﴾

شرح الله صدر بعض النساء فى مكة للإسلام، فماذا يفعلن؟ لقد تركت تلك النساء المؤمنات مكة، التى كانت أم الدنيا للعرب، وتركن عائلاتهن، ومنهن من تركن أزواجًا وأبناءً، وهاجرن إلى المدينة، إلى عالم محفوف بالمخاطر، يتربص به أعداء الإسلام من كل جانب، فأنزل الله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ أمر الله بامتحانهن، فإذا ظهر إيمانهن بالله ورسوله فلا يحل إرجاعهن إلى أزواجهن الكفار ولا الأزواج الكفار يحلون لهن ﴿ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا ﴾ ادفعوا للكفار أزواج المسلمات ما سبق أن دفعوه لزوجاتهم ﴿ وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ ولا مانع من أن يتزوج المسلمون هؤلاء المهاجرات على أن يدفعوا لهن مهورًا جديدة ﴿ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ لا تحتفظوا بالزوجات الكافرات ﴿ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ﴾ استردوا ما دفعتموه للزوجات الكافرات اللاتى سوف تسرحوهن، وليسترد كفار مكة ما دفعوه

للزوجات المسلمات اللاتى تركناهم، ذلك حكم الله العليم الحكيم ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ وإن ارتدت منكم امرأة فلحقت بالكفار فلم يردوا مهرها ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ فجاء دوركم فى ردّ مهور المسلمات اللاتى جئن للمدينة، وقال بعض المفسرين ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ فغنمتم فى قتال ﴿فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا﴾ فادفعوا إلى الذين ذهبت أزواجهم، سواء كانوا من المسلمين أو الكفار ما دفعوه بحيث يسترد كل زوج مهره، الزوج الكافر والزوج المسلم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ وأطيعوا أوامر الله ونواهيه.

***

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣)﴾

بينت الآية أن النساء المهاجرات بايعن النبى (ﷺ) على الإسلام، فعليهن ألا يشركن، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن كما كان يحدث فى الجاهلية، ولا يلحقن بأزواجهن من ليسوا بأولادهم، ولا يعصين النبى (ﷺ) فيما يأمر به من معروف، وأمرت النبى (ﷺ) أن يستغفر لهن الله ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ثم تختتم السورة بالنهى عن موالاة من غضب الله عليهم[1]، من الذين رفضوا التصديق بالبعث والحساب، يرفضون الآخرة كما ﴿يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ تعددت الأقوال فيها، فمنها كما يئس الكفار من أن يعود إليهم موتى القبور، ومنها كما يرفض أصحاب القبور الآخرة لعلمهم بسوء عاقبتهم، وقيل غير ذلك، والمقصود عدم موالاة أولئك الذين غضب الله عليهم لجحودهم ورفضهم الإيمان بالله والبعث والحساب.

***

(١) راجع شرح ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ فى سورة الفاتحة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ (٤) ﴾

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ارجع لشرح أول سورة الحديد ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ يكره الله كرهًا شديدًا أن يفعل المرء خلاف ما يقوله، وكفى بالمرء إثمًا أن يفعل ما يكرهه الله كرهًا شديدًا، وقال كثير من المفسرين: إن الآية نزلت فيمن ادعوا كمال الإيمان وتطلعهم للقتال فى سبيل الله، ثم تراجعوا ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ يحب الله الذين يقاتلون فى سبيله ـ بأموالهم وأنفسهم ـ صفًّا واحدًا، وحدة واحدة، اتفقت قلوبهم، فلا يخترقهم عدو ولا منافق، ولا يخدعهم حالم ولا غانم.

***

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦) ﴾

أذية بنى إسرائيل لموسى (ﷺ) قد تكون بعصيانه، أو بأكاذيبهم وافتراءاتهم عليه، مثل قولهم له أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد أن أتيتنا، ونقل بعض المفسرين عن أهل الكتاب أنهم اتهموا موسى (ﷺ) بقتل أخيه هارون (ﷺ)! ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ فلما انحرفوا عن الحق عامدين متعمدين، حرف الله قلوبهم ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين عن طاعته ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ فهو رسول الله لبنى إسرائيل، يصدق التوراة ولا يلغيها وإنما يخفف بعض أحكامها، ويبشر برسول الله وخاتم النبيين محمد (ﷺ)(١) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

***

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩)﴾

(١) فى هذه الآية ثلاثة أقوال مهمة: أولاً: قول عيسى (ﷺ) لبنى إسرائيل ﴿أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ فهو رسول الله، ليس إلهًا، ولا ابن إله، تلك الأساطير القديمة التى تسللت لرسالة عيسى(ﷺ)، سواء من الرومان أو الإغريق أو المصريين القدماء أو غيرهم، حتى تتسق مع تيار الثقافة السائد، وحتى تتوافق مع الأباطرة الرومان ورغبتهم فى إحكام سيطرتهم على رعاياهم. وسنكتفى من الإنجيل الذى بين أيدى المسيحيين اليوم بالآتى:

انطلق يسوع إلى منطقة الجليل يبشر بإنجيل الله ـ مرقس ١ : ١٤ . فهو يبشر بإنجيل الله الذى أرسله، كما بينت آية يوحنا: والحياة الأبدية هى أن يعرفوك أنت الإله الحق وحدك، والذى أرسلته: يسوع المسيح ـ ١٧ : ٣، أنا إنسان كلمتكم بالحق الذى سمعته من الله ـ يوحنا ٨ : ٤٠، وفى إنجيل متى: وإذا شاب يتقدم إليه ويسأل: أيها المعلم الصالح، أى صلاح أعمل لأحصل على الحياة الأبدية؟ فأجابه: لماذا تدعوننى صالحًا؟ واحد هو الصالح ـ ١٩ : ١٦ .

وثانيًا: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ فهو يصدق التوراة، يتبعها ولا يلغيها، ولكن يخفف بعض أحكامها، وجاء فى الإنجيل: ما جئت لأنقض التوراة. ولكن الذى نقضها هو بولس فى رسالته إلى مؤمنى غلاطية، وكلها عن التحرر من الشريعة، ونذكر القارئ أن بولس لم ير المسيح (ﷺ) وكان من أشد أعدائه طوال حياته(أ). وقال المسيح: إن زوال السماء والأرض أسهل من سقوط نقطة واحدة من الشريعة ـ لوقا ١٦ : ١٧ .

وثالثًا: تبشير الآية بمحمد (ﷺ)، وهى فى الإنجيل فى قوله أن عليه أن يذهب حتى يأتى الپاراكليتوس، وترجمته هى أقرب معنى لأحمد ـ يوحنا ١٤ : ١٥، ٢٦ ـ ١٦ : ٧، ١٢ .

(أ) «كيف أصبح عيسى مسيحيًا؟» كتاب وضعه بارى ويلسون أستاذ الإنسانيات والدراسات الدينية فى جامعة يورك ـ تورنتو، كندا، يعرض فى حوالى ٣٠٠ صفحة كيف حول المسيحيون الأوائل عيسى المعلم اليهودى إلى ابن الله على يد بولس ليناسب الدين البولسى الجديد الإمبراطورية الرومانية وثقافتها الإغريقية «How Jesus Became Christian» - Phoenix -- 2008

ومن أشد ظلمًا ممن اختلق على الله الكذب فى الوقت الذى يدعوه نبى الإسلام إلى الهدى والحق بآيات بينات، فإذا به يكذب بكل هذا حسدًا وكراهية، وحرصًا على متع دنيوية زائفة وزائلة، ويريد أن يطفئ نور الله بأقواله وأفعاله الجاهلة الظالمة ﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ فقد أرسل خالق الكون وربه رسوله بالهدى ودين الحق ليعليه على كل الأديان المنحرفة ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ فاستبشروا يا من تتبعون الدين الحق.

***

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) ﴾

يا أيها الذين آمنوا، آمنوا بالله ورسوله، وجاهدوا فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، تصديقًا لإيمانكم وتثبيتًا لأنفسكم، وحتى لا تكونوا من الذين يقولون ما لا يعملون، وجزاء من يؤمن بالله ورسوله، ويجاهد فى سبيله، أن يغفر الله ذنوبه ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار، بل وفى الدنيا أيضًا نصر من الله و﴿ فَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ وهو أن يظهر الإسلام فى العالم ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

***

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤) ﴾

يحب الناس أن ينتسبوا للقوى وللغنى وللناجح، فما بالهم بالانتساب لله؟ بل وما بالهم فى قول خالق الأكوان وربها ﴿ كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ ﴾ فما أجدر بأولى الألباب أن ينصروا الله، كما فعل الحواريون مع عيسى (ﷺ) عندما قالوا نحن أنصار الله، وعندها آمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة، فأيد الله أنصاره على عدوهم فأصبحوا ظاهرين.

***

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤) ﴾

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ راجع شرح أول سورة الحديد ﴿ الْقُدُّوسِ ﴾ راجع شرح آخر سورة الحشر، هو الذى بعث رسوله محمداً (ﷺ) ﴿ فِي الأُمِّيِّينَ ﴾ فى العرب، وقيل معنى أميين أنهم لم يكونوا يقرأون ولا يكتبون، وقيل لم يكن لديهم كتاب مثل اليهود والنصارى، وقيل المقصود الأمم الأخرى من غير بنى إسرائيل ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ يتلو عليهم آيات الله من قرآن ووحى بينته السنة، فتزكو نفوسهم ويتطهرون ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ القرآن، والإصابة فى تقدير الأمور والتصرف فيها، أو السنة، أو كليهما، ولقد كانوا من قبل فى ضلال الشرك، ويعلم ذلك أجيالاً لاحقة لهم ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾.

***

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥) قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ

لِلَّهِ من دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) ﴾

مثل الذين أنزل الله عليهم التوراة ليحملوا بها أمانة التكليف ﴿ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ ثم لم يعملوا بها واتبعوا أهواءهم ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ كمثل الحمار يحمل فوق ظهره كتبًا قيمة وهو لا يدرى ماذا فيها ولا كيف ينتفع بها، ساء مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ زعم اليهود، ولا يزالون يزعمون أنهم أولياء الله وأنهم أولاد الله، وأنهم شعب الله[1]، ويقولون إن الله خلق الكون كله من أجلهم، وإنهم شعبه المختار، ويقول أحبارهم إن الفرق بين روح اليهودى وغير اليهودى أكبر من الفرق بين روح الإنسان والحيوان، ولا أحد له أى حقوق عندهم[2]، وأن الله وعدهم أن يحكموا العالم من صهيون، ويقدم لهم الأغيار حقوق الولاء والطاعة[3]، فأوحى الله لرسوله ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ من دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ثم جاءت الإجابة الحقة من عند الله ﴿ وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ إنهم يخشونه ولا يتمنونه أبدًا؛ لأنهم يعلمون جيدًا أفعالهم ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ﴾ قل لهم يا محمد إن الموت الذى تهربون منه حتمًا ستلقونه ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وعندما تقفون أمام الله سيخبركم بما عملتموه فى الأرض.

***

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ من يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا من فَضْلِ اللَّهِ

(١) ومازال كثير من المسيحيين فى أوروبا والولايات المتحدة يعتبرونهم كذلك، ولذلك عليهم أن يؤيدوهم فى صراعهم مع العرب والمسلمين.

(٢) أصدر الحاخامات المعاصرون فتاوى تبيح لجيش إسرائيل قتل المدنيين، حتى الأطفال، فى غزو إسرائيل الأخير لكلٍّ من لبنان، وغزة.

(٣) وها أنا أعلن ما قضى به الرب: قال لى الرب: أنت ابنى، أنا اليوم ولدتك. أطلب منى فأعطيك الأمم ميراثًا وأقاصى الأرض ملكًا لك، فتكسرهم بقضيب من حديد وتحطمهم كآنية الفخار ـ المزمور الثانى: ٧-٩.

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)﴾

إذا رُفع الأذان للصلاة فى يوم الجمعة فاسعوا إلى المساجد للاستماع للخطبة والصلاة، وذروا البيع أو غيره مما قد يشغلكم عن ذكر الله، فذلك خير لدينكم ودنياكم إن كنتم تعلمون ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ﴾ فإذا فرغتم من أداء صلاة الجمعة ﴿فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ أمرهم بعد الفراغ من صلاة الجمعة بالانتشار فى الأرض والابتغاء من فضله، وكان عراك بن مالك (رضي الله عنه) إذا انصرف من صلاة الجمعة وقف على باب المسجد وقال: اللهم إنى أجبت دعوتك وصليت فريضتك وانتشرت كما أمرتنى، فارزقنى من فضلك وأنت خير الرازقين ـ رواه ابن أبى حاتم.

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ اذكروا الله فى حال بيعكم وشرائكم وأخذكم وإعطائكم، ولا تشغلكم الدنيا عن الذى ينفعكم فى الدار الآخرة ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً﴾ روى الدار قطنى من حديث جابر بن عبد الله قال: بينما رسول الله (ﷺ) يخطبنا يوم الجمعة إذا أقبلت عير تحمل الطعام حتى نزلت بالبقيع فالتفتوا إليها وانفضوا لها وتركوا رسول الله (ﷺ) ليس معه إلا أربعون رجلاً[1] ﴿قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فاعلموا أيها المؤمنون أن ما عند الله خير لكم من التجارة ومن اللهو، ولا تغفلوا عن أن الرزق بيد الله، يرزق من يشاء ويقدر الرزق على من يشاء وهو خير الرازقين.

***

(١) وفى رواية أخرى عند مسلم اثنا عشر رجلاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٤) ﴾

يفضح القرآن المنافقين الذين يظهرون غير ما يبطنون، وإذا جاءوا إلى رسول الله قالوا آمنا أنك رسول الله، والله الذى أرسلك يشهد إن المنافقين يكذبون ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ يحتمون فى إيمانهم، ويصدون عن سبيل الله بأقوالهم الزائفة المضللة، فساء نفاقهم، وساء عملهم ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ ذلك لأنهم آمنوا وعرفوا الحقيقة، ثم كفروا ليتبعوا أهواءهم، فختم الله على قلوبهم فلا يؤمنون ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ فلا يغرك يا محمد، والخطاب لأمته، أجسامهم وكلامهم المنمق، فهم فى واقعهم خاوون فارغون، كأنهم خشب مسنودة ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ من سوء أعمالهم يحسبون كل صيحة حربًا أو لجمع الصفوف ضد خطر، أو واقعة، يحسبونها عليهم

﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ﴾ هم العدو فاحذرهم ولا تثق فيهم ﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ﴾ لعنهم وطردهم من رحمته ﴿ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ كيف ينصرفون عن الحق المبين.

***

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ (٨) ﴾

وإذا قال لهم المؤمنون: تعالوا إلى رسول الله (ﷺ) ليستغفر الله لكم، هزوا رؤوسهم رفضًا في تكبر، فهؤلاء المنافقون لن يجدى معهم استغفارك لهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ﴾ قالها المنافقون وأعداء المسلمين منذ أيام التنزيل، ويقولها وينفذها أعداء المسلمين اليوم: أوقفوا تبرعات المسلمين للمسلمين، صادروا أموال الزكاة والصدقات، عطلوا الأوقاف الإسلامية ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ ﴾ فهذا رد صاحب الخزائن، ولكن ـ كما قال سبحانه ـ المنافقون لا يفقهون ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ﴾ قال ذلك عبد الله بن أُبى بن أبى سلول عندما نشب شجار بين مولى لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وأحد حلفاء ابن أبى سلول على من يرد الماء أولاً وهم عائدون من غزوة[1] بنى المصطلق، فأجابه واهب العزة ومانعها ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ فاعتبروا يا أولى الأبصار، ويا باحثون عن العزة في زمن الذلة التي يتجرعها العرب، وبلا مبرر!.

***

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا

(١) استخدمنا كلمة غزوة كما تستخدمها كتب السيرة، مع العلم بأن كثيرًا من الغزوات لم يحدث فيها قتال، وبعضها مثل غزوة أحد وغزوة الأحزاب، كان أعداء المسلمين هم الغزاة.

أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾

يا أيها الذين آمنوا حافظوا على نعمة الأموال والأولاد بشكر الله وحمده عليها، واذكروه واعملوا فى سبيله حتى يزيدكم، ولا تخسروا نعم الله بغفلتكم عن ذكره، وذكره ليس فقط بإمساك المسبحة أو باللسان، ولكن بالعمل الذى خلقنا الله له، وأنفقوا من رزق الله، فهذا هو تصديق الإيمان، قبل أن يأتى أحدكم أجله فيقول رب أمهلنى فأتصدق وأكن من الصالحين ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

***

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦)﴾

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ ارجع لشرح أول سورة الحديد ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ فهو خالق الكون وربه ومالكه ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ على نعمه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ طلاقة القدرة الإلهية تقربها لنا آية ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ(٨٢)﴾ [يس: ٨٢] ليس لها مانع ولا دافع ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ خلق السماوات والأرض بميزان الحق، سخرها للناس، تدعوهم للتوحيد ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ فتبارك الله أحسن الخالقين، وإليه ترجعون. يعلم ما فى السماوات والأرض، ويعلم ما تسرون فى صدوركم وأنفسكم ويعلم ما تقولون ـ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ـ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ

(*) وقيل مكية.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ألم تعلموا أخبار الأقوام السابقة التى كفرت بالله، كقوم نوح وعاد وثمود، كيف ذاقوا سوء عاقبة كفرهم في الدنيا ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ فتكبروا وجحدوا وقالوا ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا﴾ فاستغنى الله عنهم ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

***

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠)﴾

رفض الذين كفروا البعث؛ لأنهم فضلوا حياتهم الدنيا بما فيها من متع زائفة زائلة، فقال خالقهم لرسوله ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ فيا أولى الألباب آمنوا بالله ورسوله، ونور الهدى الذى أنزله الله، واعلموا أن الله خبير بما تعملون وسيحاسبكم عليه ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ فى يوم القيامة والحساب سيجمعنا الله ليوم التغابن؛ وغبن فى التجارة تعنى ظلم أو غلب، ففى يوم الحساب يظهر ظلم الكفار والمشركين والمنافقين لأنفسهم وللآخرين، أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فيكفر الله سيئاتهم ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها، وذلك هو الفوز العظيم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

***

﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٢) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣)﴾

اعلموا يا أيها المؤمنون، أنه ما أصابكم من مصيبة صغيرة ولا كبيرة إلا بإذن الله، يحط بها عنكم ذنبًا، أو يرفعكم بها درجة، أو يبتليكم لحكمة لا يعلمها إلا هو، فتقبلوا أمر الله، واعلموا أن ما أصابكم هو بأمره، بقضائه وعدله، ولحكمة إلهية، واعلموا أن من يؤمن بالله، وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر وقضاء الله خيره وشره، يهدى

الله قلبه ويطمئنه، وينزل عليه سكينته، وكان الفاروق (ﷺ) يقول: لا أبالى إن أصبحت فى يسر أو عسر. واعلموا أن الله يعلم كل ما أصابكم، ويعلم قدرتكم على الصبر وتحملكم للبلاء، أفلا يعلم من خلق؟ وأطيعوا ما أنزله الله فى القرآن، وما أوحى إلى رسوله من سنة، فإن توليتم فليس على الرسول إلا البلاغ ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

***

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)﴾

قال الطبرى: [ذُكر أن هذه الآية نزلت فى قوم أرادوا الإسلام والهجرة إلى المدينة فثبطهم عن ذلك أزواجهم وأولادهم] فاحذروا أن يتسبب حبكم لهم أن تنحرفوا عن سبيل الله ﴿وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فاعفوا واصفحوا، واغفروا لهم صدكم عن سبيل الله، ولكن احذروا ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وهذه الفتنة يمكنكم أن ترتقوا بها إلى الدرجات العلى، عندما تجمعون أموالكم من حلال، وتنفقونها فى حلال، وفى الأوجه العديدة لسبيل الله، وعندما تنشئوا أولادكم على الدين الصحيح وما يدعو إليه من مكارم الأخلاق، فاتقوا الله يا أولى الألباب قدر استطاعتكم، واسمعوا قوله وأطيعوه، وأنفقوا فى سبيل الله، يعود عليكم الإنفاق بالخير، وجاء فى الحديث «ما نقص مال من صدقة» رواه مسلم والترمذى ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فمن يتقى بخل نفسه المتعدد الوجوه فقد أفلح ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ فهنا خالق الكون وربه، صاحب الخزائن، يستدعى بأفضل الأساليب أفضل ما فى خلقه: أقرضوا الله! أقرضوا خالقكم! أقرضوا رازقكم! وقرضكم مضمون! وقرضكم مضاعف! وقرضكم إنما هو لأخيكم قليل الحظ فى الدنيا! أقرضوه بدون ربًا... أقرضوه بدون مَنٍّ... أقرضوه واعلموا أنكم ستستردون قرضكم مضاعفًا، وسيغفر لكم خالقكم ورازقكم، بل وسيشكركم على ذلك، ويحلم عن كثير مما تفعلون ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

***

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ ﴾

الخطاب موجه إلى النبى (ﷺ) والمقصود دائمًا هو وأمته إلى يوم الدين، وفى بعض الحالات يكون الخطاب لأمته ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ إذا نويتم طلاق النساء اللائى دخلتم بهن ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ يطلق الرجل زوجته فى طهر، ويكون قد مر عليها ثلاثة قروء كاملة لم يمسسها فيها ﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ﴾ اضبطوا عددها وهى ثلاثة قروء لضمان استبراء الرحم من الحمل ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾ اتقوا الله فى عامة أموركم، وخاصة فى شئون نسائكم، وأخص من ذلك فى الطلاق ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ قال أكثر المفسرين: إن المقصود هنا الزنا، أو النشوز ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ لا تدرى أيها الزوج ماذا يَجدّ، فالقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، فقد تتحسن الأمور وتنقلب الكراهية والنفور إلى محبة وود، فالزم حدود الله بالتمام والكمال، واتق الله فى زوجتك وعائلتك.

***

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ

مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) ﴾

إذا بلغت الزوجة نهاية العدة، فإما أن تراجعها بالمعروف أو تطلقها بالمعروف ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ قال بعض الفقهاء: الأمر للندب وليس للوجوب، وقال البعض الآخر: هو للوجوب فى الرجعة والندب فى الطلاق، ولو رأى الفقهاء كيف استغل بعض الأزواج ذلك أسوأ استغلال لقالوا بالوجوب فى الطلاق، وهذا رأى الشيعة الإمامية ﴿ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ فالإيمان ليس كلمة تقال، وإنما أعمال صالحة، والطاعة لأوامر الله ونواهيه، خاصة فى النساء، وفى الزواج والطلاق، وفى الشهادة لله بالحق، دون نقص أو إضافة، دون تحريف، ودون تزوير، فى الطلاق، وفى كل أمور النساء، وفى كل الأمور ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ فتقوى الله هى مفتاح الفوز فى الدنيا والآخرة، ويكفى المؤمن الحق توكله الحق على الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾ إن الله حكمه نافذ فى كل مخلوقاته، وقال الماتريدى: [ويجوز أن يكون (المقصود) مُبَلِّغ ما أمر رسوله بتبليغه (أى سيصل بلاغه للناس)] ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ قدجعل الله لكل شىء مقدارًا ووقتًا.

***

﴿ وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥) ﴾

واللاتى انقطع محيضهن بسبب تقدم العمر أو غيره، وتشككتم فى ذلك، فعدتهن ثلاثة أشهر ﴿ وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ ﴾ أى صغيرات السن اللاتى لم يبلغن بعد، فعدتهنُ ثلاثة أشهر أيضًا، أما الحوامل فعدتهن تنتهى بوضعهن أولادهن، ثم تكرر وتشدد الآيتان على تقوى الله فى النساء وخاصة فى أمور الطلاق، وتعد من يتقى الله بتيسير الله له أمره، وتكفير سيئاته، وتعظيم أجره.

***

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُوْلاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىَ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ (٦) لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧) ﴾

أسكنوا من تنوون طلاقهن فترة العدة فى مثل ما تسكنون ﴿ مِّن وُجْدِكُمْ ﴾ قدر ما تجدون، أى قدر وسعكم وحالكم، ولا تضيقوا عليهن، وإن كن حاملات فأنفقوا عليهن حتى يضعن أولادهن، وإن أرضعن لكم بعد ذلك فحاسبوهن على الرضاعة، واتبعوا المعروف معهن ﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴾ وإن اختلفتم بأن تشدد كلٌّ تجاه الآخر، فليحضر الأب مرضعةً على نفقته ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾ ويشجع الله الأب أن ينفق بسعة من ماله الوفير على المعتدة والمرضعة، أما الفقير فلينفق حسب طاقته وإمكانياته ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ وهذا وعد من الله إذا اتقى الرجل ربه ـ فى النساء بصفة خاصة ـ أن ييسر عليه بعد العسر فى كل أموره.

***

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (١١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢) ﴾

انتقلت الآيات من طلاق المرأة إلى القرى التى تجبرت وتكبرت عن أمر ربها، ورفضت رسله، فعاقبها عقابًا شديدًا، وكانت نهاية أمرها خسرانًا وعذابًا منكرًا[1]، وهكذا القرآن دائمًا ينسج نسيجًا واحدًا من الإيمان بالله واتباع أحكام شرعه، فلا إيمان بدون عمل يصدقه، وبدون شرائع يتبعها المؤمنون ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾ فاتقوا الله يا أصحاب العقول، يا من آمنتم بالله الذى أنزل إليكم قرآنًا وبعث فيكم رسولاً يتلو عليكم ذكرًا ﴿ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴾ والله خلق سبع سماوات وسبع أرضين، يجرى أمره وقضاؤه فيهن، بقدرته، وقد أحاط علمه بكل شىء، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير.

***

(١) قال محمد الغزالى فى إحدى حلقات البرنامج التليفزيونى (الرضا والنور): إن الله فى سورة الطلاق أمر الزوج بأن يتقى الله فى النساء خمس مرات، وبين جزاء القرية التى تجبرت ولم تتق الله فى النساء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) ﴾

كانت عائشة (رضى الله عنها) تغار من زينب بنت جحش (رضى الله عنها)، فلقد كانت وضيئة الوجه، وهى بنت عمة رسول الله (ﷺ) وكان رسول الله (ﷺ) يحب الحلوى والعسل، وروت كتب السيرة أنه قد أُهدى إلى زينب عسل فشرب منه ومكث عندها، فغارت عائشة وحفصة واتفقتا بينهما إذا دخل على إحداهن تقول له: إنى لأجد منك ريح مغافير (وهو طعام حلو له رائحة غير طيبة) فلما دخل على حفصة قالت له ذلك، فقال: «بل شربت عسلاً عند زينب ولن أعود له»، وفى خبر أنه قال: «حرمته على نفسى» وأقسم ألا يتناوله ثانيًا، واستكتم حفصة الخبر ولكنها أخبرت عائشة، وأعلمه الله بذلك فنزلت ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١) ﴾ يأيها النبى، لم تحرم على نفسك ما أحله الله مجاملة ونزولاً على غيرة بعض نسائك، والله غفور لما أتيت من تحريم الحلال، ولغيرتهما عليك، رحيم بكم ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ قد شرع الله لكم التحلل من أيمانكم ـ كما جاء فى سورة المائدة ﴿ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ

﴿أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ [٨٩] ـ والله مولاكم فلا تلجأوا إلا إليه ولا تطيعوا إلا شرعه، وهو العليم بكم والحكيم فيما شرعه لكم، وفى تصريف شئون خلقه ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ حين قال لحفصة إنه لن يشرب العسل وإنه حرمه على نفسه ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ﴾ فلما أخبرت عائشة ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ عرفه الله بما اتفقتا عليه ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ﴾ عرَّفها بعض ما أفشته معاتبًا، وأعرض عن بعض ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

***

﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾

إن تتوبا يا عائشة وحفصة إلى الله ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ صغت تعنى مالت، فيكون المعنى إن تتوبا فقد استمعت قلوبكما للحق ومالت إليه، وقيل بل المعنى قد مالت قلوبكما عن الحق، فتوبا إلى الله ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ فإن تعاونتما عليه كما يحدث من بعض الزوجات ضد أزواجهن ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ فهل أنتما مستعدتان للتظاهر ضد الله والمُقربين إليه من المؤمنين الصالحين والملائكة؟ ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ وهذا تهديد من السماء وإنذار إن استمرتا فى مضايقة الرسول (ﷺ)[1] ﴿مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ﴾ خاضعات خاشعات ﴿تَائِبَاتٍ﴾ عن الذنوب ﴿عَابِدَاتٍ﴾ بإحسان ﴿سَائِحَاتٍ﴾ المقصود بالسياحة الصوم، وقيل مهاجرات الدنيا فى سبيل الله ﴿ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ أى عذارى وغير عذارى. قال محمد الغزالى: [ومما يذكر هنا أن بعض المستشرقين استنكر على الوحى الإلهى أن يعنى بنزاع ثار فى بيت محمد، وأن يشغل الناس به. وقد سرد الدكتور محمد حسين هيكل (فى كتابه: حياة محمد) الشبهة، ثم قال: أليست القصة أولى بالذكر مما أورده الكتاب المقدس عن زنى لوط بابنتيه بعدما أسكرتاه وأفقدتاه الوعى؟ ونقول نحن: أوليست أولى بالذكر من زنى أحد الأنبياء بامرأة ابنه؟

(١) روت كتب السيرة أنه برغم سعة صدر الرسول (ﷺ) مع أزواجه وحسن معاشرته لهن، وقلة طلباته منهن، إلا إنهن كن يعارضنه، وما كان ذلك مألوفًا عند العرب، وكن يزعجنه بالغيرة عليه، حتى أن عائشة قالت له: ألا يغير مثلى على مثلك؟! وكن يطالبنه بزيادة النفقة، وما إلى ذلك.

إن المستشرقين يلمحون القشة فى عيون الآخرين، ولا يحسون الخشبة فى عيونهم. ولله فى خلقه شئون].

***

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨) ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ يا أيها المؤمنون احفظوا أنفسكم وأهليكم بطاعة الله والعمل بشرعه، من نار ﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ تشتعل تلك النار بالناس والحجارة، وقيل بأعمال الكفر والشرك والنفاق، ومنها حجارة الأصنام ﴿ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ ثم تخاطب الآية الكفار يوم الحساب ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فقد فات أوان الاعتذار ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ التوبة النصوح التى لا رجعة بعدها إلى المعاصى، هى التى تكفر السيئات، وهى التى تثمر الفوز بالجنة، وجاء فى الحديث «كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون» رواه الترمذى ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ فى هذا اليوم المشهود لن يخزى الله نبيه الكريم ولا الذين اتبعوه، بل إن ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

***

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٩) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي

مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢) ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ وهذا أمر من الله لرسوله وللمؤمنين إلى يوم الدين، بألا يخنعوا أو يخضعوا للكفار والمنافقين، فالمؤمن القوى خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وهو يأمره بمجاهدة الكفار والمنافقين الذين لا يتركون المسلمين فى حالهم، يكيدون لهم، ويحاولون فتنتهم عن دينهم بشتى الوسائل والسبل ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ فالحساب يوم الحساب على العمل، وليس على الحسب والنسب، ولا الرحم ولا الزوج ـ والقاعدة القرآنية ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الإسراء: ١٥]، ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] ـ ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ فهذا مثل لزوجة كافر لعين، له نفوذ وعلو فى الأرض، لم يغرها ملك زوجها وتكبره، ولم تخف ضره ولا جبروته، فآمنت بالله ولجأت إليه وتوكلت عليه، ودعته أن يعوضها فى الآخرة شر زوجها فى الدنيا ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ دعت دعاءً جميلاً بنفس موقنة مطمئنة، ثم أردفت ﴿ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ نجنى يارب العالمين من هذا الفرعون اللعين، ونجنى يارب العالمين من بطانته الظالمين، الذين يتبعونه بإفساد إلى جهنم، وضرب الله مثلاً آخر ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ مريم العذراء البتول ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ لتأتى بعيسى (ﷺ) رسولاً من أولى العزم، وجيهًا فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ ﴾ آمنت بوحى ربها وبكتبه: التوراة والزبور والإنجيل ﴿ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ من الخاضعين الخاشعين، وكيف لا وقد اصطفاها رب العالمين مرتين ـ ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٢، ٤٣] ـ وضرب الأمثلة هنا لزوجات الرسول (ﷺ)، ولزوجات المؤمنين بصفة عامة ولأزواجهن، وعبرة لكل المؤمنين والمؤمنات.